الملجـــأ

للكاتبة الالمانية آنا سيكرز

ترجمة الدكتور عدنان رشيد

قسم اللغات الاوربية ـ الالماني

تعتبر الكاتبة الالمانية آنا سيكرز من أبرز الكتاب الالمان الذيـن سخروا قلمهم لمقاومة الطغيان النازي وايولوجيته القائمة على الشوفينيـة والتمييز العنصري والعرقي وكذلك نصرة الكفاح التحرري وتصوير بطولات المقاومة ضد الاحتلال النازى وحكمه الديكتاتوري سواء داخل المانيا أو خارجها .

ولدت في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٠٠ في مدينة ماينس ودرست في عدة جامعات المانية الادب واللغة والفلسفة وتاريخ الفن والادب الصيني ثم حصلت على شهادة الدكتوراه وكان موضوع اطروحتها « فـن الرسام الهولندي رامبرانت » . ولا زالت تعيش حتى اليوم في برلين في جمهورية المانيا الديمقراطية ، وصدرت لها عدة روايات تناولت فيها كفاح الشعب الالماني منذ الحرب العالمية الاولى حتى انهيار النازيـة ابنـاء الاشتراكية .

في صباح يوم من أيام أيلول من عام ١٩٤٠ كان علم المحتلين الالمان يرفرف في ساحة كونكور وكانت الرياح تئن في ذوائب الاشجار وقد وقفت

صفوف طويلة من الباريسيين أمام أبواب المخازن والافران • وقد علمت لويزة مانيير زوجة الخراط وام لثلاثة أطفال ، ان احدى مخازن القطاع الرابع عشر يبيع البيض ، فاسرعت على الفور لدى سماعها النبأ ووقفت في الصف الطويل تنتظر دورها فابتاعت خمس بيضات ، حيث حدد نظام التموين بيضة واحدة لكل فرد في الاسبوع !!

وتذكرت وهي في طريق عودتها الى البيت ، بانه يوجد في نفس الشارع فندق تعمل فيه صديقة لها منذ أيام الدراسة اسمها « انيتا فيلارد » •

كانت أنيتا امرأة هادئة ممشوقة القوام على جانب كبير من الجمال ومن النوع الذي لايكل المرء من النظر اليه ، تفيض بالثقة كما يفيض المصباح بالضياء •• وعندما رأت لويزة تقف امامها في الفندق ارتمت عليها وطوقتها من عنقها وسرعان ما امسكت انيتا بطرف الحديث وحدثتها عن عملها في الفندق والصعوبات التي تصادفها كل يوم ثم روت لها حادثة القاء القبض على أحد الالمان بعد ان اتضح بانه هارب من احد المعتقلات الالمانية وانتحل اسما مستعارا • واستطردت وهي تمسح زجاج النافذة •• من يدري ربما سيرسلونه الى احد المعتقلات الالمانية ، ربما سيحكمون عليه بالاعدام ••• الرجال هم الرجال والحرب هي الحرب •• !

ثم اضافت •••

كان الرجل الالماني يسكن مع ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاما في الفندق ، وكان الابن يدرس في احدى المدارس الفرنسية واصبح يتكلم الفرنسية بطلاقة حتى بات من المتعذر تمييزه عن الاطفال الفرنسيين !!

وفي احد الايام عاد الابن من المدرسة فلم يجد اباه وعلم بان الجستابو الالماني اعتقله فلم يذرف أية دمعة وتحمل النبأ برباطة جأش وصلابة

نادرتين · وبعد ساعات عاد رجال الجستابو مرة ثانية وامروا الصبي باعداد حقائبه ليرسلوه الى ذويه في المانيا بعد يومين · فشمله الحزن وظللت وجهه سحابة من الكدر ودمدم قائلا لي ··

أني افضل الموت على ان اعيش مع اقربائي في المانيا ! كان الصبي يعتبرني بمثابة امه ، وكان يثق بي وكان يلازمني ملازمة الظل · وفي صباح اليوم الثاني اصطحبته معي الى احد اصدقائي وهو يملك مقهى اسمه مقهى بيار ، وهو رجل وقور نبيل القلب يفيض شهامة ! ورويت له الحادثة ورجوته ان يحتفظ بالصبي عنده لكي لايرسله الجستابو الى المانيا ، فابدى أستعداده لذلك ·

كانت لويزة تصغي الى حديث انيتا باهتمام واتخذ وجهها طابع الجد كوجه القاضي عندما ينطق بالحكم وقالت ··· ليتني استطعت رؤية هذا الصبي الشجاع !

فقالت انيتا ··· تستطيعين ان تأخذي له ملابسه الى المقهى !

واجابت لويزة وقد ارتسمت على وجهها تعابير الرضى والفرح ··· يسعدني ذلك !

وحملت لويزة ملابس الصبي وحاجياته وهي تندفع في سيرها كمياه الشلال الجارفة لاتلوي على شيء ، وعندما بلغت المقهى قالت كلمة السر وأعطت القهواتي رسالة من انيتا فسمح لها الرجل بالدخول وقادها الى غرفة البليارد · ورأت لويزة الصبي جالسا يعبث بكرات البليارد وعندما رآها امامه ذعر مكانه واصابه شبه ذهول حتى حاكى لون وجهه لون الليمون · فتقدمت منه والقت عليه نظرة تترقرق فيها العاطفة وقالت ··

لقد ارسلتني أنيتا لاعطيك ملابسك !

ورمقها الصبي بنظرة حادة واخذ الصرة منها ولم يشكرها ! واضافت

لويزة وقد ارتسمت على شفتيها ظل ابتسامة ناعمة ..

اوصتني انيتا ان تنتظرها في المقهى حتى الساعة السابعة من يوم غد ، فقال الصبي وقد بدأ الفرح والرضى يلمعان في وجهه :

سافعل ذلك !

فودعته بعد ان طبعت على خده قبلة ناعمة .

ومضت لويزة الى منزلها فوجدت زوجها هناك .. كان زوجها قد أمضى عاما يعمل في خط ماجينو وحارب الالمان هناك وكانت قد مضت ثلاثة اسابيع على تسريحه من الجيش ، وكان المصنع الذى يعمل فيه في السابق قد عاد الى العمل نصف يوم فقط ، فعاد الى المصنع من جديد يعمل فيه نصف النهار ويمضي النصف الثاني من النهار في الحانات يشرب البيرة مع زملائه العمال ، وكان في ذلك اليوم عائدا من الحانه يتميز من الغيظ والحنق على النقود التي خسرها في الحانة ، وراحت لويزة تهييء له الطعام وهي تروي له حادثة الصبي فقال وقد اسند جبينه الى كفه !

ان صديقتك انيتا عرضت حياتها الى الخطر باخفائها الصبي في المقهى ... لو كنت مكانها لسلمته الى السلطات الالمانية !!

ان ضابط الجستابو على حق لو ارسله الى ذويه في المانيا ! !

وقالت لويزة بصوت يقطر أسفا .. لا أدري ما الذي جعلك تتغير بهذه السرعة ... لقد كنت تشترك في المظاهرات والاضرابات وتساهم في احتفالات الثورة ، أما أنا فلي قلب أم وساذهب الى الصبي مساء غد الى مقهى بيار .

وفي مساء اليوم التالي عرجت الى المقهى فوجدت الصبي قابعا في احدى غرف الطابق الارضي ..

وقالت له لويزة .. ارجو ان تتريث الى يوم غد حتى أستطيع ان

آخذك الى بيتي :

ورمقها الصبي بنظرة عتاب وقال بصوت له رنين النحاس :

ليس هناك مايدعو الى اخفائي في بيتك ان كنت تخشين رجال الجستابو !

واضافت لويزة .. ليس اكثر من يوم واحد !! فودعته واوصت به صاحب المقهى خيرا ورجته ان يبقيه عنده حتى اليوم التالي ، ولم يكن ذلك جديدا عليه ، فقد كانت باريس تعج باللاجئين والهاربين !

وفي صباح اليوم التالي اخبرت لويزة زوجها بانها التقت بخالتها يوم أمس وحدثتها الاخيرة ان زوجها ارسلوه الى المعتقل وتريد ان تذهب لزيارته ورجتها ان تأخذ ابنها عندما لحين عودتها ، فابدى الزوج موافقته .

ومضت لويزة الى مقهى بيار وجلبت الصبي وفي الطريق سألته :

لماذا لاتريد العودة الى اقربائك في المانيا ؟

فقال الصبي بمرارة :

لا اريد العودة اليهم .. لقد اعتقل النازيون والدي لانهما كانا يناضلان ضد هتلر ويرفعان صوتهما ضد الحرب ، وقد ماتت أمي في السجن وقد انهالت علي في أحد الايام كلمات التلاميذ « المانيا فوق الجميع» كما كان اقرباؤنا يكرهون والدي لانهما يعتبران من المناهضين لنظام هتلر .

وعندما بلغا البيت طلبت منه لويزة ان يكف عن الحديث لان زوجها موجود في المنزل ويجب ان لايعرف بانك ابن الالماني الهارب .

وفي الايام الاولى وجد الزوج صعوبة في التفاهم مع الصبي وكان ينفر من نظراته ولا يرتاح لها وكان يلعن تلك المرأة التي تركت أبنها عندهم ،

وكان يلعن لويزة ويقذفها بوابل من الكلام القاسي .

وذات يوم سقطت زجاجة الحليب من يد الصبي على الارض فتهشمت، فصفعه على خده بعنف فبكى وعندما ارادت لويزة ارضاءه قال لها :

ان البكاء عندكم أفضل عندي من الذهاب الى المانيا .

وذات يوم عاد الزوج الى البيت حانقا وقد تجهم وجهه وقال ساخطا :

لقد اختفى الجبن من الحوانيت ثم اضاف :

لقد شاهدت اليوم سيارات الجيش الالماني وهي تحمل صناديق الجبن .. ماذا يريد هؤلاء الاوغاد منا ؟

وبعد ثلاثة اسابيع ذهبت لويزة الى صديقتها انيتا ولم تكن الاخيرة ترتاح لهذه الزيارة ، واعلمتها بان رجال الجستابو علموا باختفاء الصبي فاستشاطوا غضبا وطلبت منها ان تكون حذرة وفي طريق عودتها الى البيت أخذت تفكر بالخطر الذي يترتب على اخفائها الصبي ، واستغرقت في خيالها وكانت تحس بالحوانيت وسيارات الجيش والاعلام النازية تمرق من امامها كالسهم فانتشر الخوف في اعضائها انتشار الاحراش في ارض جيدة السقي ! وكادت تصطدم بالمارة وعندما دخلت البيت وجدت الصبي جالسا في المطبخ يقشر البطاطا فاستقبلها بابتسامة عريضة فمسحت على شعره ثم انتبهت الى صوت زوجها وهو يصيح في ابنائه دونما سبب ، وقالت في نفسها : لعل وجود الصبي وظروف الاحتلال وقسوة الحياة هي التى جعلته يلعن الدنيا وما بها واحالت اعصابه الى جمرة من نار فجعلته حاد المزاج ...

ولم يتورع أن يصفع الصبي بحجة انه ينظر اليه بوقاحة وقلة حياء !!

كانت الحارة التي يقع فيها منزلهم تبدو هادئة فلم يعكر صفوها

جنود الاحتلال ، ولما علم جنود الاحتلال بوجود حداد في هذه المنطقة اضحت منذ ذلك الوقت تعج بالجنود وبسياراتهم وكانوا يرغمون الحداد على العمل لحسابهم وكان السكان يسمعون من حين لآخر دوى الطلقات فيعلمون ان فرنسيا قد قتل أو ان الانصار اردوا احد الجنود الالمان قتيلا ، وكان الزوج يراقب من النافذة جنود الاحتلال فيستغرق في تفكير عميق ، وعندما سألته زوجته عن سبب ذلك اجابها : اني افكر في كل شيء وعن لاشيء احيانا ، ثم اضاف بعد لحظة تفكير وقد بدأ أكثر هدوءا ..

انني أفكر في الرجل الالماني الذي حدثتك عنه صديقتك انيتا والذي ترك ابنه في الفندق . فهل تتذكرين الحادثة ؟ ! اريد ان أعرف ماذا حل به وبابنه ؟

فقالت الزوجة بمرارة :

لقد اخبرتني انيتا ان الاب ارسلوه الى احد المعتقلات ، أما الابن فقد اختفى في باريس ولم يعرف الجستابو مكانه ، فباريس مدينة كبيرة ومن الصعب العثور عليه ، فربما اخفته احدى العوائل في منزلها .

كان العمال يفدون كل ليلة الى شقة لويزة ومعظمهم من أصدقاء زوجها في المصنع ، وهم يحملون قناني البيرة ، فقد كانت حانات باريس تعج بالجنود الالمان ، وكان الباريسيون يؤثرون الابتعاد عن جنود الاحتلال وعدم الاحتكاك بهم . وكان العمال يتحدثون عن مشاكل الاحتلال وكفاح الانصار ، وسمعت لويزة احد العمال يقول ان مدير المصنع الذى يعملون فيه أجبره الالمان على أخلاء المكتب لجنود الاحتلال حيث يقوم هؤلاء بتسخير الانتاج لمصلحة ماكنة الحرب ، كما ان قطع الغيار ترسل من المصنع الى الجبهة الشرقية ...

فأسرعت لويزة الى اغلاق نوافذ الغرفة لكي لايتسرب حديثهم الى

اسماع جنود الاحتلال وجواسيسهم وطلبت منهم ان يتكلموا بصـــوت واطيء ٠

كانت لويزة قد هيأت كل شيء فحررت خطابا وارسلته الى عنوانها ، واستلمت الخطاب في اليوم التالي وقرأته امام زوجها وفيه تطلب صديقـه عمتها منهم الاحتفاظ بالصبي لمدة اخرى لمرض زوجها وحاجته الى العناية ، وانبرت لويزة تمتدح اخلاق الصبي وقالت مخاطبة زوجها :

انه شجاع فقد استطاع امس ان يشترى لنا لحم عجل بدون بطاقـة تموين ٠

وفي احد الايام جلس الزوجان لوحدهما صامتين فقال الزوج مخاطبـا لويـزة :

انهم يملكون السلاح والقوة ونحن لانملك السلاح ولايحتاجـــون سوى ان يأمروننا برفع ايدينا ليصوبوا الى صدورنا النيران !!

ليذهب بهم الشيطان ٠

ولكن الصبي الذي حدثتكعنه انيتا نسيت انت قصته ! اما انا فلن انسها.ان هذا الصبي الذي تركته صديقة عمتك عندنا لا استطيع ان أعطف عليه بقدر عطفي على ابن الالماني لو كان هو مكانه ٠٠٠ كنـــت سأتصرف معه مثل تصرفي مع ابنائي وعطفت عليه كما لو كنت اباه ٠٠ آه لو قدر لي ان اجده لفتحت له ذراعي واحتضنته كمـــــا احتضن ابنـي الصغير ٠٠!!

قالت لويزة لزوجها بنبرة هادئة وهي تومأ الى الصبي ٠٠ انه في بيتنا منذ أشهر ! !